ردّاً على الشيخ محمد سويد:
ايضاحات أخرى عن جبل عامل

بقلم : حسين سلمان سليمان

في مقال الشيخ محمد سويد ،« جبل عامل تاريخ طويل من الكفاح والالتزام بالعروبة» هناك نقاط عدة اود ان اوضحها خدمة للحقيقة ، وتسليط اضواء كاشفة على جوانب مشوشة من تاريخ لبنان الحديث وخاصة القرن الثامن عشر . لأن عدم دقة الحوليات ، هذا الى جانب المزايدات والمغالطات ، كل ذلك ادى الى عدم وضوح هذه الحقبة التاريخية ، التي ولدت فيها الملكيات الزراعية الواسعة لبعض الاسر اللبنانية ، التي لا يزال عدد كبير من افرادها يتوارث الاقطاع السياسي والاقتصادي في تاريخنا المعاصر .

وكان اعتمادنا في محاولتنا هذه العودة الى الوثائق الفرنسية . وهي التقارير الدبلوماسية الصادرة عن قنصليات طرابلس وصيدا وعكا وحلب ، التي نمتلك عن بعضها نسخا مصورة على ميكروفيلم ننتظر الفرصة المناسبة لنشرها . (١)

وننصح من يرغب البحث في هذه الحقبة التاريخية على اساس علمي دقيق ، العودة الى الموسوعة الوثائقية التاريخية التي يوالي السفير الدكتور عادل اسماعيل بنشرها . فهذه بالرغم من انتخاب استاذنا لوثائق معينة ، وتعرض بعضها لحذف بعض الفقرات تعتبر افضل مصدر لتاريخنا الحديث . (٢)

اولا : نتفق مع الباحث بأن سبب الصدام العاملي الزيداني ، سعي الشيخ ظاهر العمر لمد سيطرته على جبل عامل ، ولكن هناك اسبابا اخرى :

ا : حماية حدوده الشمالية من اية غزوة مفاجئة يقوم بها والي صيدا المستند الى محالفة امراء آل شهاب ملتزمي جبل الدروز في ذلك الوقت .

ب : حماية الشيخ ناصيف النصار للمتمردين من ابناء الزعيم الزيداني . (٣)

« Cheik Nassif qui est un de plus ardeur Partisans d'Ali Daher...» (٤)

«... Ce Nassif... il est le grand protecteur du cheik Othman fils de Daher qui fut refugié chez lui...» (٥)

ثانيا : لم يتم التحالف بين الزعيمين بسبب هزيمة الشيخ ظاهر في معركة تربيخا،وانما :

ا ـ وساطة كل من الامير اسماعيل الشهابي-ملتزم مقاطعة حاصبيا ، والشيخ علي جنبلاط ـ الشخصية الاولى في جبل الدروز ـ والشيخ عبد السلام العماد ، سنة ١٧٦٧.

ب ـ شعور القائدين بأن القتال بينهما قد ادى الى تدمير القرى الحدودية لكلا الطرفين . كما كانا يعانيان من عدو مشترك ـ الولاة العثمانيون وامراء آل شهاب .

جـ ـ انقسام سوريا في هذه الفترة التاريخية الى قسمين : حزب السلطان ويتزعمه والي دمشق عثمان باشا الكرجي (الصادق) وابناؤه في ولايتي صيدا وطرابلس والامير يوسف شهاب بانصاره في جبل الدروز، وحزب المتمردين ويتزعمه ظاهر العمر في عكا وعلي بك الكبير ومماليكه في مصر والامير منصور الشهابي ملتزم جبل الدروز . ولذا فقد كان من مصلحة مشايخ جبل عامل الانضمام الى احد هذين الحزبين ، ولما كانوا قد ذاقوا المرارة من حزب السلطان فقد فضلوا الانضمام الى اعدائه .

ثالثا : اما بالنسبة لامتناع الشيخ ناصيف النصار عن دفع المال الميري،فقد تاكد لدينا على ضوء الوثائق بأن هذا الزعيم منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر لم يكن يدفع هذه الضريبة الا اذا كانت علاقته حسنة مع والي صيدا ويمتنع عن الدفع اذا لم يكن متفاهما معه .

«Ce Jeune cheik rebelle qui lui refuse jusqu'au Miri d'en au Grand seigneur...» (٦)

وبعد قيام التحالف العاملي الزيداني سعى الشيخ ظاهر في مصالحة الشيخ ناصيف مع والي صيدا . فعرض شيخ عكا على والي صيدا ان يلتزم بلاد عاملة وتعهد الاول بدفع تلك الأموال ورضي الوزير لأنه ضمن بذلك دفع الضرائب .

رابعا : اما الاسباب الحقيقية لمعركة البحيرة فليست غضب الدولة العثمانية وخشيتها من هذا التحالف،وانما هزيمة والي دمشق عثمان باشا الكرجي (الصادق) في معركة داريا يوم الاثنين ٩ صفر ١١٨٥/٧ حزيران (يونيو) ١٧٧١ وما اعقب ذلك من سقوط دمشق وانسحاب محمد بك ابو الذهب منها في يوم الثلاثاء ٥ ربيع اول ١١٨٥/١٨ حزيران (يونيو) ١٧٧١ . وعاد الوالي الشرعي الى مقر ولايته وحاول ان يملأ الفراغ السياسي الذي خلقه انسحاب القائد المملوكي المنتصر فقرر توجيه ضربة الى ظاهر واحتلال عكا قبل ان تصل الاخير المساعدات الجديدة التي ارسلها علي بك الكبير من مصر.وفي الاول من شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٧١ جرت المعركة .

خامسا : اما الاسباب الحقيقية لمعركة كفررمان فليست فقط هزيمة عثمان باشا الصادق في معركة البحيرة ولكن هناك اسبابا اخرى ابعد :

– ازدياد ثقة علي بك الكبير بقوة حلفائه بعد الهزيمة التي مني بها العثمانيون . فاخذ يحرك قواتهم لارسالها الى فلسطين بغية تحقيق حلمهم التوسعي المشترك بالسيطرة على كل الساحل السوري من غزه الى طرابلس،على ان تمتد سلطة حاكم مصر لغاية غزة،في حين يخضع لسلطة ظاهر ما تبقى منه،على ان يقوم كل منهما بالتوسع بمفرده وبجهوده الشخصية في عمق البلاد الخاضعة له ،وذلك يمنحهما موقعا ممتازا من حيث نجدة وحماية بعضهما . وسوف تكون بلاد ظاهر بمثابة حاجز يحمي شيخ البلد من اعتى القوات ، ويمكنه من الانصراف الى الاهتمام بحماية ما تبقى من حدوده اي من الصحراء والمغرب والبحر .

وبالفعل باشر ظاهر العمر بتنفيذ هذه الخطة وكان هدفه الاول احتلال صيدا،فسير اليها امدادات بحرية وصلته من مصر ، واقام معسكرا عاما للقوات الزيذانية والعاملية على بعد ثلاث ساعات من صيدا . وارسل انذارا الى والي المدينة بالانسحاب منها الى جبل الدروز او الى جبل عامل والا سيكون الضحية الأولى .

«...Il refusait ces conditins de clémences,ilenserait le premier victime et la cause des maux qu'aprouverait le peuple...» (٧)

وخشي الباب العالي ان تنجح خطة المتمردين التي تؤمن لهم موقعا استراتيجا ، ومعنى ذلك حرمان قواته في سوريا الداخلية من الاتصال مع اسطنبول وخسارة كل الموانىء على طول الشاطىء من مصر الى طرابلس والتضحية بكل المكاسب التي من الممكن ان يجنيها . فارسل في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٧٧١ امرا الى الامير يوسف يأمره فيه بمهاجمة بلاد عاملة ويعفيه مقابل ذلك عن ميري بلاده لمدة سنتين .

(١) هذه الوثائق منتقاة من مجموعة :

Archives Nationales de Paris: Reperatoire numerique de la sous-serie B1 Correspendance consulaire. Lettres reçues (AE B1)
Consulat de Seyde, Tripoli de Syrie Acre et Alep.

لمزيد من المعلومات حول اهمية هذه الوثائق في كتابة تاريخ بلاد الشام ننصح في العودة الى :

● جريدة النهار عدد رقم ١٢٨٥٥ تاريخ ٧٧/٦/٥ « تاريخ لبنان تغيرت المائدة والصحن » .

● حسين سلمان سليمان : لبنان في فترة الصراع الداخلي (١٧٥٣ ـ ١٧٩٠) رسالة غير منشورة لنيل درجة الماجستير في جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ .

(٢) Ismail. Adel. (D): Documents Diplomatique et consulaire relation à l'histoire du liban et du pays du Proche orient. 12 vol. Beyrout 1975-1979.

(٣) لمزيد من المعلومات راجع رسالتنا للماجستير .

(٤) من تقرير القنصل الفرنسي في صيدا (AE-B1) سنجل رقم ١٠٣٢

تاريخ ١٧٦٢/٣/٢٥

(٥) من تقرير القنصل الفرنسي في صيدا (AE B1) سجل رقم ١٠٣٢ تاريخ ١٧٦٧/٤/٢٣

(٦) من تقرير القنصل الفرنسي في صيدا (AE-B1) سجل رقم ١٠٣٠ تاريخ ١٧٥٥/١/٣

(٧) من تقرير القنصل الفرنسي في صيدا (AE-B1) سجل رقم ١٠٣٥ تاريخ ١٧٧١/١١/٩

السفير، ٢٩ حزيران ١٩٧٩، صفحة ١٣